

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

الأستاذ: طاهر سبع

جامعة المسيلة- الجزائر

توطئة: إن تاريخنا الإسلامي خاصة السياسي منه فيه الكثير من الجوانب الإيجابية ، كما فيه أيضا الجوانب السلبية، خاصة فيما يتعلق بالنزاعات الإقليمية، والصراع على السلطة الذي حدث كثيرا بين أفراد الأسرة الواحدة أو مجموعة من الأسر، أو القبيلة الواحدة أو مجموعة من القبائل، وهو الذي أدى في كثير من الأحيان وعلى مر العصور - إلى التمزق السياسي لأممتنا، لهذا لا بد أن يدرس تاريخنا بسلبياته وإيجابياته معا، ولا يمكن دراسة التاريخ بموضوعية إن أبرزنا الجوانب المضيئة في هذا التاريخ ، دون إبراز الجوانب السلبية أو "المظلمة" فيه، وذلك لأن الفائدة من التاريخ أخذ العبرة والاستفادة منه بإيجابياته وسلبياته في حاضرنا ومستقبلنا، وإلا أصبح هذا التاريخ بلا فائدة ، وأشبه شيء بالحكايات التي تروى في مجالس السمر.

والتاريخ السياسي للدولة الحمادية الذي بدأ مع مطلع القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي بعد استقلال حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط، متخذا من قلعة أبي طويل عاصمة له¹ ، لا يعدو أن يكون فصلا من فصول تاريخ أمتنا الطويل، وفيه كغيره من تواريخ الدول أو الدويلات الإسلامية في المشرق والمغرب الإسلاميين، جوانب إيجابية وأخرى سلبية، لا بد على دارسي التاريخ الكشف عنها وعدم إغفالها، حق يتسنى لنا دراسة تاريخنا الإسلامي بصدق وموضوعية ، دون زيادة أو مبالغة، أو تحريف للنصوص.

وقد تناولت مختلف المصادر التاريخية الوسيطة التاريخ السياسي للدولة الحمادية باستفاضة خاصة المصادر المغربية منها ، بيد أن المصادر التاريخية المغربية المعاصرة للحديث، أو القريبة منه لم تصلنا، بل وصلتنا مادتها العلمية ضمن مصادر تاريخية أخرى متأخرة عنها نوعا ما.

ويأتي في طليعة المصادر التاريخية التي استوفت التاريخ السياسي للدولة الحمادية، كتاب البيان المعرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي (712هـ/1312م)، وكتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/1405م)، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 630هـ/1232م).

الأستاذ: طاهر سبع

ويعتبر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري²، من أهم المصادر التاريخية المشرقية التي تناولت تاريخ العالم الإسلامي كله، بما في ذلك الجزء الغربي منه، حيث احتوى هذا الكتاب على معلومات مستفيضة ودقيقة، من أخبار المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى أيام الدولة الموحدية الذي كان معاصرا لها³. ومما يميز كتابه الكامل، أنه وازن فيه تقريبا بين أحداث المشرق والمغرب الإسلاميين فلم يطغ اهتمامه بهذا على اهتمامه بذلك⁴.

وفيما يتعلق بتاريخ المغرب الإسلامي في "الكامل"، نشير إلى أن المستشرق الفرنسي فانيان *Fangan* قام بجمع المادة العلمية المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي من تاريخ ابن الأثير، ونشرها في الجزائر سنة 1901 تحت عنوان⁵:

"Annals du Maghreb et de L'Espagne du tarikh d'ibn al-athir".

وقد اعتمد ابن الأثير على الكثير من المصادر المكتوبة والتي أكثرها لم يصل إلينا، ومن المرجح أنه اعتمد في جمع مادته العلمية عن المغرب الإسلامي على مصادر تاريخية مغربية معاصرة للدولة الحمادية أو قريبة منها، والتي كانت متوفرة في زمانه - وإن لم يصرح بذكرها - بحيث نقل أو انتخب منها، الكثير من المادة العلمية ليدعم بها كتابه الكامل في التاريخ، ونقصد بذلك كتاب "تاريخ إفريقية والمغرب" للرفيق القيرواني الذي يعد من المؤرخين المعاصرين للدولتين الحمادية والزيرية، حيث توفي منتصف القرن الخامس الهجري.

ويتميز ابن الأثير في كتابه الكامل على العموم، بروح علمية نقدية كبيرة، حيث كان يرجع إلى أوثق الروايات والنصوص، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بحيث لا يأخذ الأخبار على هواها، بل كان يمحسها ويرفض منها ما لا يصمد أمام النقد، كما يتسم منهجه بمحاولة تقديم تاريخ الأمة الإسلامية كوحدة متناسقة، مما يضفي صبغة علمية للتاريخ الإسلامي، يضاف إلى ذلك ما اتسم به أسلوبه من سلاسة ووضوح، ودقة وبساطة واختصار⁶.

وتأتي أهمية الكامل في التاريخ بالنسبة لأحداث القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في المغرب الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ الدولة الحمادية بصفة خاصة، أن معظم المصادر التاريخية المغربية المعاصرة للحدث، أو القريبة منها على الأقل لم تصلنا، وحسب الترتيب الزمني للمصادر التاريخية المتوفرة لدينا، والتي تناولت الأحداث السياسية للدولة الحمادية واستفاضت في الحديث عنها، فإن الكامل في التاريخ يعتبر أقدم هذه المصادر، ونقصد هنا مصدرين مغربيين سبقت الإشارة إليهما ألا وهما:

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

البيان المغرب لابن عذارى المراكشي، وكتاب العبر لابن خلدون، لوفرة مادتهما واعتماد الباحثين في تاريخ المغرب الإسلامي عليهما كثيرا.

وستتناول هذه الدراسة بشيء من التحليل التاريخي، المعلومات التي أوردها ابن الأثير حول التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة (408هـ-460هـ)، أي في مرحلة التأسيس، ومنذ قيام هذه الدولة حتى بناء مدينة بجاية ثم انتقال السلطة الحمادية إليها؛ هذا وسوف نتوقف من خلال هذه الدراسة عند بعض الأحداث الهامة في تأسيس الدولة الحمادية بالقلعة، مسلطين بعض الأضواء عليها، ومحاولين تفسير بعض الأحداث التاريخية أيضا، مثل ظروف وأسباب نشأة الدولة الحمادية، ومراحل الصراع الزيري الحمادي، والغزو الهلالي للمغرب الأوسط، ومحاولة الكشف عن السبب أو الأسباب الرئيسية لانتصارهم واكتساحهم للمغرب الإسلامي، وسبب بناء الناصرين عِلناس (454-481هـ) لمدينة بجاية، وأسباب الانتقال إليها، مقارنين ذلك بما ورد عند ابن عذارى المراكشي، أو عند ابن خلدون أو غيرهما. أولا- ظروف تأسيس الدولة الحمادية: إن التاريخ السياسي للدولة الحمادية التي قامت بالمغرب الأوسط يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الدولة الزيرية التي قامت قبلها بنحو نصف قرن تقريبا، لأنهما كانتا في الأصل دولة واحدة ثم انشطرت إلى دولتين كما هو معروف في تاريخ الدويلات الانفصالية في التاريخ الإسلامي.

وقد تناول ابن الأثير سبب قيام الدولة الزيرية وطرفا من أخبارها، كما تناول ظروف قيام الدولة الحمادية بكل مراحلها، وإن لم يفصل في بعض الأحداث والجزئيات. لهذا تقتضي منا الدراسة عند الحديث عن الدولة الحمادية، الحديث عن قيام الدولة الزيرية، ثم انقسام هذه الدولة إلى دولتين وأسباب ذلك.

1- رحيل الفاطميين وقيام الدولة الزيرية في المغرب: يخبرنا ابن الأثير في صدد الكلام عن حوادث سنة 361هـ على غرار باقي المؤرخين الذين تحدثوا عن قيام هذه الدولة- بأن سبب قيام الدولة الزيرية هو انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، وأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي لما انتقل من إفريقية يريد مصر، استعمل على إفريقية يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري⁷، ولكن لم يجعل لنائبه هذا "حكما على جزيرة صقلية ولا على مدينة طرابلس ولا على أجدابية وسرت"⁸.

الأستاذ: طاهر سبع

ثم ذكر ابن الأثير خبر يوسف بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي واجتماع صنهاجة على طاعته، وذكر في معرض حديثه هذا بناء بلكين بن زيري لمدينة أشير 9 سنة 324 هـ في موقع حصين بعيدا عن متناول الأعداء¹⁰.

وقد تعرض ابن الأثير لبعض أخبار الدولة الزيرية بعد ذكر تأسيسها، حيث ذكر وفاة بلكين بن زيري سنة 373 هـ، وهو في طريقه إلى فاس متأثرا بالمرض، وولاية ابنه المنصور 11، ثم ذكر انهزام جيش المنصور بن بلكين أمام الجيش الزناتي بقيادة خزرون وزيري بن عطية صاحبها سجالماسة وفاس، في معرض حديثه عن حوادث سنة 375 هـ¹².

وفي حوادث سنة 377 هـ تعرض ابن الأثير إلى خروج المنصور بن بلكين لحرب قبيلة كتامة 13، ثم ذكر في حوادث سنة 379 هـ مسيره لمحاربة عمه النبي كان واليا على مدينة تهارت بعد أن شق عصا الطاعة عليه، واحتماء عمه هذا بزيري بن عطية المذكور صاحب فاس¹⁴.

وفي حوادث سنة 386 هـ ذكر ابن الأثير وفاة المنصور بن بلكين وولاية ابنه باديس وذكر ضمن هذا الحادث، أن باديس لما آل إليه الحكم استعمل عمه حماد على مدينة أشير¹⁵؛ ثم ذكر مشاركة حماد مع ابن أخيه في محاربة زناتة بسبب تغلب زيري بن عطية على مدينة تهارت التابعة للزيريين، وذكر أيضا في معرض حديثه هذا انتصار باديس على قبيلة زناتة¹⁶.

2- الصراع الزيري الحمادي ومراحله: سوف نتطرق إلى هذا الصراع ومراحله حسب العناصر التالية:

- سبب اشتعال الحرب بين الطرفين وبدايتها: نشير هنا في معرض حديثنا عن ظروف نشأة الدولة الحمادية، أن ابن الأثير لم يتعرض لحادثة بناء مدينة القلعة في حوادث سنة 398 هـ وإنما تعرض مباشرة لنار الفتنة التي اشتعلت بين باديس بن المنصور، وعمه حماد بن بلكين ضمن حوادث سنة 406 هـ وذكر ابن الأثير أن سبب اشتعال هذه الحرب أن باديس طلب من عمه حماد التنازل عن بعض المدن الشرقية في المغرب الأوسط - التي أقطعه إياها من قبل - إلى نائب ابنه المنصور، وتسليم ذلك هاشم بن جعفر، ولكن أخا حماد المسى إبراهيم والذي كان مقيما مع باديس، انفصل عن الوفد الذي كان مقبلا على حماد وأسرع إلى أخيه، وزين له الخروج عن الحكم الزيري وإعلان العصيان على باديس ومحاربتة إن اقتضى الأمر، مما يفسر أن انفصال حماد بن بلكين عن الدولة الزيرية كان مخططا له، وذلك ربما راجع

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

إلى شخصية حماد وطموحه الشخصي للسلطة والانفصال والاستقلال بالحكم، ولو كلف ذلك قتل الكثير من الأبرياء¹⁷.

- دخول حماد مدينة باجة ثم انسحابه إلى أشير وتوجهه باديس إلى القلعة: ثم يحدثنا ابن الأثير عن دخول حماد - بعد انتصاره على جيش عمه باديس - إلى مدينة باجة حيث قام حسب الرواية - بالبطش والتنكيل بأهلها، لكنه ما لبث أن تراجع أمام الجيش الزيري الذي تولى قيادته باديس بنفسه، وانسحب إلى مدينة أشير للاحتماء بها، بينما توجه باديس بجيشه إلى مدينة المسيلة واستقبله أهلها بحفاوة، ومنها انتقل إلى مدينة القلعة ليقوم بتخريبها¹⁸.

ويحدثنا ابن الأثير في هذا الصدد عن انضمام الكثير من جنود حماد الذين تركهم بالقلعة تحت قيادة أخيه إبراهيم - بقصد الدفاع عنها - إلى الجيش الزيري، وكيف انتقم إبراهيم هذا. حسب رواية ابن الأثير. من ذوبهم بلا رحمة أو شفقة¹⁹.

- معركة وادي شلف: وبعد ذلك ينتقل ابن الأثير لينقل إلينا وقائع معركة وادي شلف بالمغرب الأوسط في حوادث سنة 406هـ بين حماد وباديس وانهزام جيش حماد وانسحابه إلى القلعة، حيث أوشك أن يقع مكبلا في الأغلال خلال هذه المعركة. حيث قال: "وتقارب باديس وحماد والتقوا مستهل جمادى الأولى واقتتلوا أشد قتال وأعظمه، ووطن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لما كان حماد يفعله لمن يظفر به، واختلط الناس بعضهم ببعض وكثر القتل، ثم انهزم حماد وعسكره لا يلوي على شيء، وغنم عسكر باديس أثقاله وأمواله، ولولا اشتغال العسكر بالنهب لأخذ حماد أسيرا، وسار حتى وصل إلى قلعته تاسع جمادى الأولى"²⁰.

ونشير هنا إلى أن ابن الأثير لم يذكر اسم هذه المعركة، ولا المكان الذي جرت فيه، وإنما ورد ذكرها بتفصيل أكثر عند ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب²¹.

ثم ذكر ابن الأثير خلال عودة حماد إلى القلعة للتحصن بها، خروجه بعد ذلك إلى مدينة دكامة القريبة من المسيلة²² قصد التنكيل بأهلها، ولكن دون أن يذكر السبب وراء إحداث تلك المذبحة²³.

- اشتداد الحصار على حماد بالقلعة: بعد انهزام حماد في شلف وتراجع الجيش الحمادي إلى القلعة للتحصن والاحتماء بها، تعقب جيش باديس فلول هذا الجيش، ووصل إلى القلعة ضاربا الحصار عليها لعدة أيام، وطال الحصار حتى اشتد ذلك على حماد وتوالت عليه المصائب²⁴.

الأستاذ: طاهر سبع

- وفاة باديس وفك الحصار عن حماد: كان من حسن حظ حمادين بلكين، أن الظروف ساعدته في ذلك الوقت العصيب على تجاوز المحنة عندما فُكَّ عنه الحصار، وكان ذلك بسبب وفاة الأمير الزيري باديس خلال الحصار وهو مقيم بمدينة المسيلة، فاضطر اثنان من قادة الجيش - وهما حبيب بن أبي سعيد وباديس بن أبي حمامة - إلى ترك خلافاتهما السابقة، واتخذا قرارا بمبايعة كرامة أخي باديس وليا للعهد بدل المعز بن باديس صاحب ولاية العهد، لأن ظروف الحرب تقتضي ذلك، حتى إذا ما انتهت الحرب بايعوه، وذلك قبل أن يعلم الجند بوفاته فتتفرق الكلمة، ويعلم حماد أيضا بالأمر فيساعده اختلاف الكلمة وتفرق الجيش على فك الحصار.

وقد تناول ابن الأثير خبر وفاة باديس وتأبينه، وكيفية مبايعة ابنه المعز بتفصيل، وذكر ضمن هذا الحديث أن المعز بن باديس لما آل إليه الحكم، عمل على إعادة تقوية المذهب المالكي بالمغرب الأدنى بعد أن كان يغلب عليها المذهب الحنفي²⁵.

- معركة أشيرو وتجدد الصراع الزيري الحمادي: وخلال سرد هذه الوقائع تطرق ابن الأثير أيضا إلى خروج حماد بعد أن فكَّ عنه الحصار، متوجها نحو مدينة أشير لاسترجاعها، وكانت هذه المدينة قد دخلت تحت حكم الزييين أثناء الحصار، حيث استولى عليها كرامة أخي باديس، وقد ذكر ابن الأثير أنه لما وصلها كرامة "اجتمع عليه قبائل صنهاجة وغيرهم"²⁶، فجاءه حماد في "ألف وخمسمائة فارس فتقدم إليه كرامة بسبعة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، فرجع بعض أصحاب كرامة إلى بيت المال فاتهبوه وهربوا، فتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، ووصل إلى مدينة أشير فأشار عليه قاضها وأعيان أهلها بالمقام ومنع حماد عنها ففعل"²⁷، وذكر ابن الأثير أيضا أنه لما دخل حماد المدينة وحاصرها استدعى ابن أخيه كرامة للتفاوض معه حول تسليم المدينة مقابل إعطائه الأمان، ولكن لما خرج منها كرامة ودخلها حماد قام هذا الأخير بالتنكيل بأهلها، لكونهم أشاروا على كرامة بحكمها ورفض تسليمها لحماد وقتل حماد من أهل أشير كثيرا حيث أشاروا على كرامة بحفظ البلد ومنع حماد منه"²⁸، أما كرامة فقد وصل "إلى المعز في المحرم هذه السنة (أي سنة 407هـ) فأكرمه وأحسن إليه"²⁹.

وضمن هذا الحديث ذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس خرج لمحاربة حماد بن بلكين في أواخر شهر صفر سنة 408هـ³⁰، وكان من نتائج هذه المعركة أن "أسر إبراهيم أخو حماد ونجا حماد وقد أصابته جراحة وتفرق عنه أصحابه ورجع المعز"³¹.

3- تأسيس الدولة الحمادية سنة 408 هـ: بعد هذه المعركة التي انهزم فيها حماد أمام الجيش الزيري رأى من مصلحة دولته الناشئة أن يهادن بني عمومته، ويصل رباط الود بينه وبين الأمير الزيري المعز بن باديس، فأرسل برسالة إلى المعز معتذرا له عما بدر منه، ومقرا له بالخطأ راجيا عفوّه 32، فأجابه المعز: "إن كنت على ما قلت فأسرسل ولدك القائد إلينا، واستعمل المعز على جميع العرب المجاورة لإبراهيم عمه كرامت، فعاد جواب حماد أنه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهم أنه قد أخذ له عهد المعز بعث ولده القائد أو حضر هو بنفسه، فحضر إبراهيم وأخذ العهد على المعز وأرسل إليه يعرفه ذلك ويشكر المعز على إحسانه إليه" 33.

وفي هذا الصدد ذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس رجع بعد ذلك إلى قصره بالمنصورية آخر جمادى الأولى سنة 408 هـ ولما وصل أطلق سراح عمه إبراهيم من الأسر "وخلع عليه وأعطاه الأموال والدواب وجميع ما يحتاج إليه" فلما وردت هذه الأخبار إلى حماد "أرسل ولده القائد إلى المعز وكان وصوله للنصف من شعبان فأكرمه وأعطاه شيئا كثيرا وأقطعه المسيلة وطبنة 34 وغيرهما، وعاد إلى أبيه في شهر رمضان ورضي الصلح وحلف عليه، واستقرت الأمور بينهما وتصاهرا، وزوج المعز أخته بعبد الله بن حماد فزادوا اتفاقا وأمنا" 35.

وهذا الاتفاق تكون الظروف قد تهيأت لحماد بن بلكين كي يوطد دعائم دولته الناشئة، حيث أصبح حاكما مستقلا على المغرب الأوسط، ليترك بعد ذلك إلى الهدوء نسبيا، وذلك بعد صراع مرير - مع بني عمومته الزيريين - راح ضحيته الكثيرون.

وبعد الحديث عن هذا الصراع الزيري الحمادي المرير، وانفصال حماد بن بلكين عن الدولة الزيرية، وتكوين دولة مستقلة هي الدولة الحمادية في المغرب الأوسط، يمكننا القول حسب روايات ابن الأثير وغيره - أن حماد بن بلكين لما خامرته فكرة الانفصال عن الدولة الزيرية وعزم على ذلك، سيطر عليه شعور بإثبات الذات، حيث لم تأخذه رافة أو شفقة بخصوصه، وكل من اعترضوا طريقه، أو حتى ممن حدثهم أنفسهم برفض الانضمام إليه، دون أن يقوموا بذلك، وربما قد كلفه ذلك المنطق والشعور، إبادة قرى ومدن بأهلها، كما مرينا خلال الحديث عن مجريات الحرب.

ثانيا: - الدولة الحمادية بعد وفاة حماد بن بلكين: بعد مدة من الصلح الزيري الحمادي والمصاهرة التي تمت بينهما واستقلال حماد بالمغرب الأوسط، توفي حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية. حسب رواية

الأستاذ: طاهر سبع

ابن الأثير- على إثر مرض أصابه وهو يقوم بترهة خارج عاصمة ملكه، مع بعض خاصته في سنة 417هـ، فحمل على إثرها إلى القلعة ودفن بها 37، ووُلِّي بعده ابنه القائد بن حماد، وذكر ابن الأثير أنه لما وصلت أنباء الوفاة إلى المعز "عظم على المعز موته لأن الأمر بينهما كان قد صلح واستقامت الأمور للمعز بعده وأذعن له أولاد عمه حماد بالطاعة" 38.

ونفهم من عبارة ابن الأثير الأخيرة، أن الحماديين عادوا مجددا- بعد وفاة حماد للانضواء تحت الدولة الزييرية، ويؤيد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن الأثير نفسه في موضع آخر ضمن حوادث سنة 432هـ، حيث ذكر تجدد الصراع الحمادي الزييري بعد خلع الحماديين طاعتهم للمعز، مما استدعى المعز بن باديس القيام بحملة إلى القلعة وضرب عليها الحصار مجددا لمدة سنتين تقريبا 39.

وفيما يتعلق بالحوادث السياسية والعسكرية في عهد القائد بن حماد فإن ابن الأثير لم يتحدث عنها إطلاقا، سوى ما ذكر عن وفاة القائد في سنة 446هـ ووصيته لابنه المحسن قبيل الوفاة بالإحسان إلى عمومته، ومخالفة المحسن لهذه الوصية، مما تسبب في مقتله من طرف بلكين بن محمد بن حماد وانتقال لسلطة إلى هذا الأخير في نفس السنة 40.

ثالثا: الغزو الهلالي لإفريقية (تونس) وموقف الحماديين منه: أرجع ابن الأثير سبب دخول أعراب بني هلال سنة 442هـ إلى إفريقية (تونس)، إلى الوزير الفاطمي أبو محمد الحسن بن علي اليازوري الذي حنق كثيرا على المعز بن باديس لما أظهر ولاءه للخلافة العباسية وخلع طاعة العبيديين، ولما كان يبيته هذا الوزير من حقد دفن للمعز بن باديس، لأن المعز كان يحتقره، ولم يخاطبه بلقب الوزارة كسابقه، أو بالألقاب التشرييفية الدالة على الولاء له، وإنما خاطبه بمهنته السابقة قبل أن يصبح وزيرا، فبيت اليازوري الانتقام من المعز، وقد ذكر ابن الأثير ذلك في حوادث سنة 442هـ 41.

فشرع الفاطميون على إثرها "في إرسال العرب إلى الغرب فأصلحوا بني زغبة ورياح وكان بينهم حروب وحقود، وأعطوهم مالا وأمرؤهم بقصد بلاد القيروان وملكوهم كل ما يفتحونه ووعدهم بالمد والعدد؛ فدخلت العرب إلى إفريقية وكتب اليازوري إلى المعز أما بعد: "فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولوا وحملنا عليها رجالا وكهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا" 42.

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

ويذكر ابن الأثير أن المعز لما بلغته أنباء الزحف الهلالي على أراضي دولته استهان بالأمر معتمدا على فرق العبيد فقط، والبالغ عددهم ثلاثون ألف مقاتل فقط ، لأن الجيش الصنهاجي خذله من قبل في كثير من المواقف مع زناتة، فكان من غير المستبعد أن يخذله في حربه مع الهلاليين 43.

ونلاحظ حسب رواية ابن الأثير أن القبائل الهلالية اكتسحت المغرب الإسلامي بدءا من برقة بسرعة خاطفة لا تمر على شيء إلا وجعلته قاعا صفصفا، حتى وطئت حوافر خيولهم الأراضي التونسية ، ولما أرادوا دخول القيروان قال لهم : " مؤنس بن يعي المرديسي ليس المبادرة عندي برأي، فقالوا: كيف تحب أن تصنع فأخذ بساطا فبسطه ثم قال من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه قالوا: لا نقتدر على ذلك قال: فهكذا القيروان خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ فقالوا: إنك لشيوخ العرب وأميرها، أنت المقدم علينا ولسنا نقطع أمرا دونك" 44.

ولما دخل أعراب بني هلال إفريقية أراد المعز أن يصطنعهم ويعزز بهم جيشه كما فعل أباطرة الرومان مع القبائل الجرمانية وخلفاء بني العباس مع الديلم والأتراك 45 ولكن الهلاليين جاؤوا إلى المغرب للتمتع بالسلطة لا ليكونوا في خدمة الغير ، لكن سرعان ما اتضح أن الاتفاق بينهم وبين الأمير الزيري مستحيل، فقرر المعز مواجهتهم بالقوة ليوقفهم عند حددهم فكانت الدائرة عليه 46، وذلك في معركة حيدران 47.

وبعد هذه الحرب المنهكة حاصر الهلاليون مدينة القيروان، واستولى مؤنس بن يعي على مدينة باجة، وفي هذه الظروف العصيبة التي ألمت بالجيش الزيري الذي عجز في الدفاع عن القيروان "أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم من العرب" 48، فدخلت القبائل الهلالية مدينة القيروان وشرعت حسب رواية ابن الأثير - "في هدم الحصون والقصور، وقطعوا الثمار وخرّبوا الأثمار، وأقام المعز والناس ينتقلون إلى المهديّة إلى سنة تسع وأربعين، فعندما انتقل المعز إلى المهديّة في شعبان فتلقاه ابنه تميم ومثى بين يديه، وكان أبوه قد ولّاه المهديّة سنة خمس وأربعين فأقام بها إلى أن قدم أبوه الآن، وفي رمضان من سنة تسع وأربعين هبت العرب القيروان، وفي سنة خمسين خرج بلكين ومعه من العرب لحرب زناتة فقاتلهم فانهزمت زناتة وقتل منها عدد كثير" 49.

وهذه الطريقة والصورة تم دخول قبائل بني هلال إلى القيروان واستباحوها، بعد أن تخاذلت قبيلتا صنهاجة وزناتة عن نصرة الأمير الزيري، ووجهت له طعنة في الظهر، وبعد ذلك انساحت القبائل الهلالية في الأراضي التونسية، واستولوا على الكثير من الضياع والقرى والمدن، وراحوا يقتسمون الغنائم والسبي، وكل

الأستاذ: طاهر سبع

وما وصلت إليه أيديهم فيما بينهم 50، وبدأوا يتقدمون رويدا رويدا حتى وصلوا إلى حدود الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

- موقف الحماديين من الغزو الهلالي: وفيما يخص موقف الحماديين من هذه الحوادث، فإن ابن الأثير لم يقدم لنا أي خبر عن الأحداث التي جرت في المغرب الأوسط أثناء حديثه عن الزحف الهلالي على إفريقية (تونس)، خاصة فيما يتعلق بموقف القائد بن حماد من معركة حيدران، لكن ذكر في حوادث سنة 457هـ أن القائد بن حماد كان "يضمر الغر وخلق طاعة المعز والعجز يمنعه من ذلك فلما رأى القائد قوة العرب وما نال المعز منهم خلع الطاعة" 156 ونفهم من قول ابن الأثير هذا أن القائد كان مظهر الولاء والطاعة للمعز فما قامت هذه الحرب استبشر خيرا بذلك وأعلن العصيان.

أما ابن خلدون، فقد ذكر عند الحديث في تاريخ القبائل العربية أن المعز: "بعث بالصرخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حماد بن بلكين، فكتب إليه بكتيبة من ألف فارس سرحهم إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من قومه". ثم أردف قائلا: "وارتحل المعز في أولئك النفوس من لف لفهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالهم من بقايا عرب الفتح وحشد زناتة والبربر، وصمد نحوهم في أمم لا تحصى يناهز عددهم فيما ذكر ثلاثين ألفا" إلى أن يقول: "ولما تراحف الفريقان انخزل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلاليين للعصية القديمة، وخاتمة زناتة وصنهاجة وكانت الهزيمة على المعز، وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان" 52.

وهنا نجد أنفسنا أمام روايتين متناقضتين لا تسمح لنا بالضبط معرفة موقف الحماديين من الغزو الهلالي لأراضي الدولة الزييرية، ولكننا نرجح رواية ابن الأثير، للدلائل التاريخية التي ذكرها حول قيام الدولة الحمادية، والعلاقات الحمادية الزييرية منذ عهد حماد وباديس، لأن بني حماد ظنوا في البداية أن الأهوال والمصائب التي لحقت بني عمومهم ستفيدهم، فعاد القائد بن حماد إلى الدعوة الفاطمية الشيعية، عندما دعا المعز للدولة العباسية السنية اعتقادا منه أن بني هلال سيقفون عند حدود إمارته 53، وكذلك الأخبار التي ذكرها ابن الأثير حول تحالف تميم بن المعز مع الهلاليين للإيقاع بالناصرين علناس، وسيوضح هذا عند ذكر الغزو الهلالي للمغرب الأوسط.

رابعا: الغزو الهلالي للمغرب الأوسط ومعركة سيبية 457هـ: بعد وفاة الأمير الحمادي القائد بن حماد سنة 447هـ انقسم البيت الحمادي على نفسه ووصل الحكم الناصر بن علناس بن حماد 451-481هـ فارتكب خطأ قاتلا بتحالفه مع قبيلتي الأثيج وعدي ضد رياح وزغبة وسليم لكن انهزم حلفاؤه وانهزم معهم

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

في معركة سببية سنة 457هـ، فسمح مرغما لقبائل الأثيج بعد طردهم من تونس ان يستوطنوا منطقة قسنطينة، وبالطبع حصل له ما حصل للمعز بن باديس قبله، فاضطر هو الآخر إلى مغادرة القلعة والإبحار إلى الشاطئ 54.

وقد ذكر ابن الأثير ضمن حوادث سنة 457هـ الغزو الهلالي للمغرب الأوسط بعد أن مهد له بذكر الأسباب الداعية إلى ذلك، والتي أعانت على هذا الأمر، وهذه الرواية التي أوردها ابن الأثير 55، تلقي الأضواء على الأسباب الرئيسية للغزو الهلالي للمغرب الأوسط، حيث نرى أن تميم بن المعز هو الذي شجع الهلاليين على غزو المغرب الأوسط وأعانهم بالمال والسلاح، ربما انتقاما من الحماديين الذين لم يحركوا ساكنا أثناء حربهم مع الهلاليين، ولو تحالف الحماديون مع الزييين منذ البداية لكان بالإمكان وقف الزحف الهلالي على المغرب ولكن لله في خلقه شؤون والأيام دول، ويمكن تشبيه العلاقات بين الحماديين والزييين في المغرب بالعلاقات التي كانت بين الملوك الطوائف في وقت كان النصارى يتحالفون وتزداد قوتهم، والنورمان القادمون من شمال أوربا يتوسعون في غرب المتوسط، مستفيدين من تطاحن الديولت الإسلامية في المغرب 56.

خامسا: تجديد بناء مدينة بجاية وسببه 57: ضمن حوادث سنة 457هـ ذكر ابن الأثير تأسيس الناصر بن علناس لمدينة بجاية، وذلك بعد أن ذكر معركة سببية. قرب تونس. وأرجع ابن الأثير سبب إعادة تجديد بناء مدينة بجاية إلى موقعها الاستراتيجي المنفتح على البحر، يضاف إلى ذلك الأسباب التوسعية التي انتهجتها الدولة الحمادية على حساب الدولة الزيية، لكون بجاية قريبة من جهة البحر من المهديّة عاصمة تلك الدولة، ولا يخفى على أي دارس أن المدن عبر التاريخ كانت تتخذ عواصم لعدة أسباب من جملتها وأهمها الموقع الاستراتيجي للمدينة، وقد ذكر ابن الأثير أن الذي أشار على الناصر ببناء مدينة بجاية رجل يدعى محمد بن البعبع، وهو الشخص الذي أرسله الأمير تميم بن المعز الزييري إلى الناصر بن علناس بقصد إصلاح ذات البين، وإيقاف الحرب الضروس التي كانت بينهما، فخان هذا الشخص أميره، وأشار على الأمير الحمادي الناصر بن علناس بتغيير العاصمة إلى بجاية حتى يسهل عليه غزو المهديّة. عاصمة الزييين. عن طريق البحر.

ونحن هنا نورد رواية ابن الأثير بكاملها لأهميتها، حيث ذكر ابن الأثير هذه الحادثة قائلا: "لما كانت هذه الواقعة بين بني حماد والعرب وقويت العرب فاهتم تميم بن المعز لنلك وأصابه حزن شديد، فبلغ ذلك

الأستاذ: طاهر سبع

الناصر وكان له وزير اسمه أبو بكر بن أبي الفتح، وكان رجلا جيدا يحب الاتفاق بينهم وهوى دولة تميم، فقال للناصر: ألم أشر عليك أن لا تقصد ابن عمك وأن تتفقوا على العرب [يقصد بنو هلال] فإنكما لو اتفقتما لأخرجتما العرب؟ فقال الناصر: لقد صدقت ولكن لا مرد لما قُيِّر، فأصلح ذات بيننا.

فأرسل الوزير رسولا من عنده لى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح، فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولا إلى الناصر فاستشار أصحابه فاجتمع رأيهم على محمد بن البعبع، وقالوا له: هذا رجل غريب وقد أحسنت إليه وحصل له منك الأموال والأملأك، فأحضره وأعطاه مالا ودواب وعبيدا، وأرسله فسار مع الرسول حق وصل إلى الناصر.

فلما أوصل الكتاب وأدى الرسالة قال للناصر: معي وصيبة إليك وأحب أن تخلي المجلس فقال الناصر: أنا لا أخفي عن وزيرى شيئا، فقال: بهذا أمرني الأمير تميم، فقام الوزير أبو بكر وانصرف.

فلما خرج قال الرسول: يا مولاي إن الوزير مخامر عليك هوام مع الأمير تميم لا يُخفي عنه من أمورك شيئا وتميم مشغول مع عبيده، قد استبد بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلت بعسكرك ما بت إلا فيما لبغض الجند والرعية لتمييم، وأنا أشر عليك بما تملك به المهديّة وغيرها، وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية، وقال له: أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك، فأجابه الناصر لى ذلك وارتاب بوزيره، وسار مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة.

فلما وصل الناصر والرسول إلى بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل، وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ورجعا إلى القلعة فقال الناصر لوزيره: إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا، فاكتب له جواب كتبه ففعل.

وسار الرسول وقد ارتاب به تميم حيث تجدد بناء بجاية عقيب مسيره إليهم وحضوره مع الناصر فيها، وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقافته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولا يثق به فكتب معه إنني لما اجتمعت بتمييم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية، وقد عظم أمرها عليه واتهمني فانظر لى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا، فإني سائر إليهم مسرعا، وقد أخذت عهد زويلة وغيرها على طاعتك، وسير الكتاب فلما قرأه الناصر سلمه إلى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكره وأثنى عليه، وقال لقد نصح وبالع في الخدمة فلا تؤخر عنه إنفاذ العرب ليحضر معهم.

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم وكتابا منه يذكر له الحال من أوله إلى آخره، فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك، وبقي يتوقع له سببا يأخذه به إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر.

فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أن الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه فأحضره تميم فقال: كنت واصلا إليك وحدثه أن البعيع الرسول دعاني فلما حضرت عنده قال: أنا في ذمامك أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهديّة فمئنته، وهو خائف فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره بإحضاره فأحضره الشريف.

فلما وصل إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصرومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم فلما رآه ابن البعيع سقطت الكتب منه فإذا عنوان أحدها من الناصرين عناس إلى فلان فقال له تميم: من أين هذه الكتب فسكت فأخذهما وقرأها، فقال الرسول ابن البعيع العفويا مولانا فقال: لا عفا الله عنك وأمر به فقتل وغرقت جثته"58.

إذن فمن خلال ما ذكره ابن الأثير نرى أن تجديد بناء مدينة بجاية كان بسبب موقعها الاستراتيجي على ساحل البحر المتوسط، ولأسباب توسعية أيضا استدعت نقل العاصمة إلى بجاية، بعد أصبحت القلعة لا تفي بذلك الغرض وتراجعت مواردها، ولكن الكثير من الباحثين جعلوا السبب الرئيسي لانتقال الناصرين عناس إلى بجاية بعد بنائها سنة 460 هـ ثم الانتقال إليها في السنة الموالية، هجمات أعراب بني هلال المتتالية على القلعة بدعم من الأمير الزيري تميم بن المعز، مما أزعج الناصرين عناس، وجعله يفكر في بناء مدينة حصينة لا تصل إليها حوافر خيل الهالبيين، مغفلين الموقع الجغرافي الاستراتيجي لمدينة بجاية والأغراض التوسعية للناصرين عناس على حساب الزيريين، ولعل ذلك بسبب اعتمادهم على رواية ابن خلدون في العبر، مهملين رواية ابن الأثير59.

ونحن هنا لا ننكر ما سببته هجمات الهالبيين التخريبية من إزعاج للناصرين عناس في عاصمته بالقلعة، لكننا نرى بعد قراءتنا المتفحصّة للرواية التي أوردها ابن الأثير وللملابسات التاريخية المحيطة بضرورة تغيير عاصمة الدولة، أن تجديد بناء بجاية من طرف الناصرين عناس كان لأسباب توسعية واستراتيجية، وليس كما وصفته رواية ابن خلدون60، ويؤيد ما ذهبنا إليه من ترجيح رواية ابن الأثير ما

الأستاذ: طاهر سبع

ذكره أيضا ياقوت الحموي-وهو معاصر لابن الأثير- في معجم البلدان حول أسباب بناء مدينة بجاية حيث ذكر نفس السبب الذي ذهب إليه ابن الأثير، وذلك بنوع من الاختصار 61.

زيادة إلى أن الانتقال إلى بجاية كان على مراحل ولم يتم دفعة واحدة، ولوتخرت القلعة بالكامل على أيدي الهلاليين لتم الانتقال بسرعة، كما حصل مع المعز عندما انتقل إلى المهديّة بعد خراب القيروان، كما نوضح في هذا الصدد للحقيقة التاريخية، أن مدينة القلعة برغم انتقال السلطة الحمادية منها إلى مدينة بجاية، إلا أنها بقيت مركز إشعاع حضاري لفترة طويلة إلى أن دخلتها جيوش الموحيدين سنة 547هـ بقيادة عبد المؤمن بن علي ونهبت ما فيها 62.

وختاما لهذه للدراسة، نرى أن المعلومات التي أوردها ابن الأثير في الكامل عن التاريخ السياسي للدولة الحمادية خاصة، والمغرب الإسلامي بصفة عامة جد هامة. خصوصا أن معلومات ابن الأثير تعد من أقدم ما وصل إلينا من معلومات حول تاريخ المغرب في هذا العهد بالذات وهذا لا يعني الإلتقاص من قيمة المصادر المغربية وما فيها من معلومات وفيرة وقيمة معا.

المصادر:

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد : الكامل في التاريخ ، دار الكتاب لعربي، بيروت ، لبنان ، ط 6 ، د ، ت.
2. ابن خلدون ، عبد الرحمن ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1992.
3. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، د، ت .
4. البكري ، أبو عبيد: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر، د، ت.
5. الحميري ، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1984.

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

6. المراكشي ، ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1950.

7. المراكشي ، عبد الواحد علي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998.

8. ياقوت الرومي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1995.

المراجع:

1. أحمد ، عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة: أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ن طرابلس ، ليبيا ، ط1980.

2. العربي ، إسماعيل : دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1980.

3. العروي ، عبد الله : مجمل تاريخ المغرب (المغرب في عهد الوحدة والسيطرة) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 ، 2000.

4. بوروبة ، رشيد : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية . المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر ط1977.

5. بوعزيز ، يحي : الموجز في تاريخ الجزائر (القديم والوسيط) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط1999.

6. سالم ، عبد العزيز : التاريخ والمؤرخون العرب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ط1967.

7. عويس ، عبد الحليم : دولة بني حماد صفحة رائعة في التاريخ الجزائري ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر ، ط2 ، 1991.

8. فيلال ، عبد العزيز : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ط2 ، 1999.

الأستاذ: طاهر سبع

مجموعة من المؤلفين : موسوعة أعلام الفكر الإسلامي ، تحت إشراف وتقديم :
محمود حمدي زقزوق ، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ،
ط1994م.

الهوامش:

¹ القلعة: وتسمى قلعة أبي طويل ، أو قلعة بني حماد ، وتسمية القلعة في العصور الإسلامية الوسيطة، تعني المكان الحصين أو المكان الحربي الذي يصلح لحماية الدولة ، والقلعة المذكورة مدينة حصينة تقع على جبل عجيسة وهو جبل عظيم ضمن سلسلة جبال الحضنة بالجزائر، يمتاز هذا الجبل بمناعته حيث بنى حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية على قمته التي تسمى تقربوست حصنا يطل على سهل أو شط الحضنة بمدينة المسيلة، وكان بناء القلعة من أجل التدعيم المادي والعسكري والسياسي لاستقلال دولته ، حيث كان حماد يبحث عن مكان حصين يحمي من خلاله دولته الناشئة، وقد بقيت القلعة عاصمة للدولة الحمادية و استبحرت في العمران، كما ازدهرت من جميع النواحي الاقتصادية والثقافية ، حيث توافد عليها التجار والحرفيون ، وأهل العلم من النواحي المجاورة ، حتى أصبحت قطبا اقتصاديا هاما في المنطقة آنذاك ، ومسلكا تجاريا تسلكه القوافل التجارية ، ومركز إشعاع حضاري ، إلى أن نقل الحاكم الحمادي الناصر بن علناس عاصمة الحماديين إلى بجاية سنة 460هـ ، ويسمى مكان القلعة حاليا بمدينة المعاضيد التي تقع شمال شرقي مدينة المسيلة بالجزائر على بعد حوالي 40كم . للتوسع حول تاريخ القلعة وموقعها الجغرافي حضارتها و آثارها انظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1995، ج 4 ، ص389. 390 ؛ أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دارالكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر، د،ت ، ص59؛ محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1984، ص469 ؛ رشيد بوروية :الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية . المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر ط 1977 ؛ عبد

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

الحليم عويس : دولة بني حماد صفحة رائعة في التاريخ الجزائري ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر ، ط2 ، 1991 ، ص99.89.

² ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب بعز الدين ؛ ولد ابن الأثير بإقليم الجزيرة الفراتية المعروفة بجزيرة ابني عمر سنة 555هـ وتوفي سنة 630هـ بمدينة الموصل =

= ولقد كان ابن الأثير إماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيرا بأنسب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم - كما ذكر تلميذه ابن خلكان - ، وقد ألف ابن الأثير العديد من الكتب في التاريخ أهمها: الكامل في التاريخ وهو من التواريخ الشاملة ، وكتاب الباهر في الدولة الأتابكية ، وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب ، اختصر فيه كتاب الأنساب للسمعاني ، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة . انظر ترجمته في : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، د، ت ، ج3، ص348 وما بعدها ؛ مجموعة من المؤلفين : موسوعة أعلام الفكر الإسلامي تحت إشراف وتقديم : محمود حمدي زقزوق ، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط1994م ، ص36 .

³ تعددت طبعات الكامل في التاريخ ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة المطبوعة بدار الكتاب العربي ببيروت.

⁴ مجموعة من المؤلفين : موسوعة أعلام الفكر الإسلامي ، ص36.

⁵ عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب . دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ط2 ، 1999 ، ص23.

⁶ انظر: السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، 1967 ، ص79.

الأستاذ: طاهر سبع

⁷ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ..عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، دار الكتاب لعربي ، بيروت، لبنان ، ط 6 ، دت، ج7، ص45.

⁸ نفس المصدر، نفس الموضوع.

⁹ أشير: مدينة تقع في المغرب الأوسط كان أول من بناها - حسب ياقوت الحموي- زيري بن مناد الصنهاجي سنة 324هـ وعمل على جيلها حصنا مانعا فقصدها الناس للأمن والسلامة فصارت مدينة مشهورة ، ثم استولى عليها بنو حماد فيما بعد واتخذوها عاصمة لملكهم قبل الانتقال إلى القلعة واستولوا على جميع النواحي المجاورة لها خلال الصراع مع الزييين، وأطلالها باقية إلى يومنا هذا بالقرب من مدينة عين بوسيف بولاية المدية بالجزائر. انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1، ص 202-203 .

¹⁰ ابن الأثير، نفس المصدر، ج7، ص47.

¹¹ نفس المصدر، ج7، ص121.

¹² نفس المصدر، ج7، ص128.

¹³ نفس المصدر، ج7، ص133.

¹⁴ نفس المصدر، ج7، ص141.

¹⁵ نفس المصدر، ج7، ص182. قال ابن الأثير: " وفيها استعمل باديس عمه حماد بن يوسف بلكين على أشير وأقطعه إياها ، وأعطاه من الخيل وال سلاح والعدد شيئا كثيرا فخرج إليها ".

¹⁶ نفس المصدر، ج7، ص199.

¹⁷ نفس المصدر، ج7، ص276. يقول ابن الأثير بصد ذكر هذه الحرب: " فسارا إلى أن قارب حمادا ففارق إبراهيم هاشما وتقدم إلى أخيه حماد ، فلما وصل إليه حسن له الخلاف على باديس ووافقه على ذلك وخلعا الطاعة وأظهر العصيان ، وجمعا الجموع الكثيرة فكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، فبلغ ذلك باديس فجمع عساكره وسار إليهما ، ورحل حماد وأخوه إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذي معه - وهو بقلعة شقنبارية - فكان بينهم حرب انهزم ابن جعفر ولجأ إلى باجة وغنم حماد ماله وعدده ، فرحل باديس

على مكان يسمى قبر الشهيد فأتاه جمع كثير من عسكر عمه حماد ، ووصلت كتب حماد وإبراهيم إلى باديس أنهما ما فارقا الجماعة ولا خرجا عن الطاعة فكذبهما ما ظهر من أفعالهما من سفك الدماء وقتل الأطفال ، وإحراق الزروع والمساكن وسي النساء".

¹⁸ نفس المصدر، ج7، ص276-277.

¹⁹ نفس المصدر، ج7، ص277. يقول ابن الأثير في هذا الصدد: " وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من جند القلعة التي له ، وفيها أخوه إبراهيم ، فأخذ إبراهيم أبناءهم وذبحهم على صدور أمهاتهم فقيل : إنه ذبح بيده ستين طفلا فلما فرغ من الأطفال قتل الأمهات".

²⁰ نفس المصدر، نفس الموضوع .

²¹ انظر: ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط1950، ج1، ص380-381. وقد ذكر ابن عذارى في هذا الصدد حديثه عن المعركة أن الناس أخذوا: " من الأموال والغنائم ما لا يحصى عددا وكثرة ووجد رقعتان فهما : أن الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمئة ، ومن الورق ألف ألف وخمسمئة ألف درهم ، ومن الأمتعة خمسون صندوقا ، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه". ج1، ص380 .

²² دكامة :وتسمى دكمة بفتح الأول وسكون ثانيه ، الحموي، معجم البلدان ، ج2، ص459.

²³ ابن الأثير، المصدر السابق ، ج7، ص277. حيث قال: " وجاء إلى مدينة دكمة [هكذا [فتجنى على أهلها فوضع السيف فيهم فقتل ثلاثمئة رجل ، فخرج إليه فقيه منها وقال له : يا حماد إذا لقيت الجيوش انهزمت وإذا قادمك الجموع فررت ، وإنما قدرتك وسلطانك على أسير لا قدرة له عليك فقتله ، وحمل جميع ما في المدينة من طعام وملح وذخيرة إلى القلعة التي له". وللمقارنة فقد ذكر ابن عذارى المراكشي بتفصيل أكثر سبب نهب حماد لمدينة دكامة وانتقامه من أهلها وقتله لثلاثمئة رجل، وأنه نقم عليهم بسبب ميلهم إلى باديس من جهة ، ومن جهة أخرى لنقص المؤونة بالقلعة ، حيث ذكر ابن

الأستاذ: طاهر سبع

عذارى أنّ حمادا " لما وصل إلى قلعته تحصن فيها مع أخيه إبراهيم فأقاما بها ثلاثة أيام حتى استراحا وأراحا دوابهما ومن كان معهما ، فعرفه أخوه إبراهيم بحاجته إلى الازدياد من الطعام والملح". ج 1، ص 381 ، فخرج حماد مع أخيه إلى دكامة وهي على بعد مرحلتين من المسيلة " فلما وصلها تصايح أهل الموضع بساقته ، فاعترضهم بالسيف وقتل منهم ثلاثمئة رجل ". ج 1، ص 384 ؛ وذكر ابن عذارى أيضا ، أن رجلا صالحا وعظ حماد ونهاه عن أفعاله تلك قائلا له: "يا حماد اتق الله ، فإنني حججت حجتين ، فقال له حماد : أنا أزيدك عليهما الشهادة وأمر به فضربت عنقه. " ج 1، ص 384. كما ذكر أيضا أن جماعة من التجار العابري السبيل كانوا متواجدين بمدينة دكامة أثناء الغزو وطلبوا الأمان من حماد قائلين له: "نحن قوم غرباء ، لا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك ، فقال لهم اجتمعوا وأعرفكم ، فاجتمعوا ودخل معهم غيرهم ممن طمع في الخلاص معهم ، فلما وصلوا إليه أمر بهم فضربت رقابهم أجمعين ". ج 1، ص 384 .

²⁴ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 7، ص 277. ويحدثنا ابن الأثير عن ذلك قائلا: "وسار باديس خلفه وعزم على المقام بناحيته وأمر بالبناء وبذل الأموال لرجاله ، فاشتد ذلك على حماد وأنكر رجاله ، وضعفت نفسه، وتفرق منه أصحابه ، ثم مات ورؤ بن سعيد الزناتي المغلب على ناحية طرابلس واختلفت كلمة زناته، فمالت فرقة مع أخيه خزرون وفرقة مع ابن ورؤ فاشتد ذلك أيضا على حماد وكان يطمع أن زناته تغلب على بعض البلاد فيضطر باديس إلى الحركة إليهم".

²⁵ نفس المصدر ، ج 7، ص 277- 278. ذكر ابن الأثير كل ذلك بتفصيل قائلا: "لما كان يوم الثلاثاء سلخ ذي القعدة سنة ست وأربعمائة أمر باديس بعرض العساكر فرأى ما سره، وركب آخر النهار ونزل ومعه جماعة من أصحابه ففارقه إلى خيامهم فلما كان منتصف الليل توفي، وخرج الخادم في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد و باديس بن أبي حمامة ، وأيوب بن يطوفت - وهم أكبر قواده - فأعلمهم بوفاته وكان بين حبيب وباديس بن حمامة عداوة فخرج حبيب مسرعا إلى باديس ، وخرج باديس إليه أيضا فالتقيا في الطريق فقال كل واحد منهما لصاحبه ، قد عرفت الذي بيننا والأولى أن

نتفق على إصلاح هذا الخلل، فإذا انقضى رجعنا إلى المنافسة. فاجتمعوا مع أيوب وقالوا : إن العدو قريب منا وصاحبنا بعيد منا ومتى لم نقدم رأسا نرجع إليه في أمورنا لم نأمن العدو ونحن نعلم ميل صنهاجة إلى المعز، وغيرهم إلى كرامت [هكذا] بن المنصور أخي باديس . فاجتمعوا على تولية كرامت ظاهرا فإذا وصلوا إلى موضع الأمن ولوا المعز بن باديس وينقطع الشر ، فأحضروا كرامت وباعوه وولوه في الحال وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر خبر من ذلك وعزموا أن يقولوا للناس بكرة : إن باديس قد شرب دواء ، فلما أصبحوا أغلق أهل مدينة الحمادية أبوابها وكأنما نودي فيهم بموت باديس فشاع الخبر، وخاف الناس خوفا عظيما واضطربوا لموته وأظهروا ولاية كرامت ، فلما رأى ذلك عبيد باديس ومن معهم أنكروه ، فخلا حبيب بأكابريهم وعرفهم الحال فسكنوا ؛ ومضى كرامت إلى مدينة أشير ليجتمع صنهاجة وتلكانة وغيرهم وأعطوهم من الخزائن مائة ألف دينار ، وأما المعز فإنه كان عمره ثمان سنين وستة أشهر وأياما تقريبا ، لأن مولده كان في جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة . ولما وصل إليه خبر أبيه أجلسه من عنده للعرض ثم ركب في الموكب وباعه الناس فكان يركب كل يوم ويطعم الناس كل يوم بين يديه ، وأما العساكر فإنهم رحلوا من مدينة الحمادية إلى المعز ، وجعلوا باديس في تابوت بين يدي العسكر والطبول والبند على رأسه والعساكر تتبعه ميمنة وميسرة ، وكان وصولهم إلى المنصورية رابع محرم سنة سبع وأربعمائة ، ووصلوا إلى المهديّة والمعز بها ثامن المحرم فركب المعز ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرفه بقوادهم وأكابريهم فرحل المعز من المهديّة فوصل إلى المنصورية منتصف المحرم ، وهذا المعز أول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة"

²⁶ نفس المصدر، ج 7، ص 278.

²⁷ نفس المصدر، نفس الموضوع .

²⁸ نفسه.

²⁹ نفسه.

³⁰ نفسه.

³¹ نفسه. ونشير هنا إلى أن ابن الأثير لم يذكر- في حوادث هذه السنة - الأحداث التي

كانت تجري في تونس آنذاك مما استدعى المعز بن باديس للإيقاف الحرب مع

حماد ، ولعل ظروف توليته للحكم هي التي جعلته يتوقف عنها ، إضافة إلى

إعلانه منذ توليه الحكم ، المذهب السني المالكي مذهباً رسمياً للدولة وتنكيله بالشيعة،

الأستاذ: طاهر سبع

حيث ذكر ابن خلدون أن المعز بن باديس كان: " منحرفا عن الرافضة ومنتحلا السنة ، فأعلى بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار إلى قتل من وجد منهم". انظر: عبد الرحمن ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1992 ، ج6 ، ص 187 .

³² ابن الأثير، نفس المصدر، ج7، ص278.

³³ نفس المصدر، نفس الموضوع.

³⁴ طينة: مدينة بالمغرب الأوسط تقع على ضفة الزاب ، قال عنها ياقوت الحموي ليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها ، وتقع الآن بالجزائر بالقرب من مدينة بريكة بأرض الأوراس- باتنة. انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج4 ، ص21.

³⁵ نفس المصدر، ج7، ص279. ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد أن حمادا قد استقل بعد - هذه المفاوضات- " بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتمهارة ، وما يفتح من بلاد الغرب ، عقد المعز للقائد بن حماد على طبنة ومرسى الدجاج وبلاد زواوة ودكامة وبلزمة وسوق حمزة". ابن خلدون، المصدر السابق ، ج6، ص187.

³⁶ ذكر ابن خلدون أن وفاة حماد كانت في سنة 419هـ ، المصدر السابق ، ج6، ص203.

³⁷ ابن الأثير، المصدر السابق ، ج7، ص326.

³⁸ نفس المصدر، نفس الموضوع.

³⁹ نفس المصدر، ج8، ص29. ذكر ابن الأثير ذلك قائلا: " في هذه السنة خالف أولاد حماد على المعز بن باديس صاحب إفريقية وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه فسار إليهم المعز وجمع العساكر وحشدتها وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة حماد وضيق عليهم وأقام عليهم نحو سنتين ". وذكر ابن خلدون خروج المعز بن باديس إلى القلعة كان سنة 434هـ، وأن القائد بن حماد " راجع طاعة العبيدين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة ". المصدر السابق، ج6، ص203.

⁴⁰ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ج8، ص68. قال ابن الأثير: "في هذه السنة في رجب توفي القائد بن حماد وأوصى إلى ولده محسن وأوصاه بالاحسان إلى عمومته فلما مات خالف ما أمره وأراد عزل جميعهم ، فلما سمع عمه يوسف بن حماد بما عزم عليه خالفه، وجمع جمعا عظيما وبني قلعة في جبل منيع وسماها الطيارة، ثم إن محسنا قتل من

عمومته أربعة فازداد يوسف نفورا وكان ابن عمه بلكين بن محمد في بلده أفيون فكتب إليه محسن يستدعيه فسار إليه فلما قرب منه أمر محسن رجالا من العرب أن يقتلوه فلما خرجوا قال لهم أميرهم خليفة بن مكن : إن بلكين لم يزل محسنا إلينا فكيف نقتله فأعلموه ما أمرهم به محسن فخاف، فقال له خليفة: لا تخف وإن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك ، فاستعد بلكين لقتاله وسار إليه، فلما علم محسن بذلك وكان قد فارق القلعة عاد هاربا إليها فأدركه بلكين فقتله وملك القلعة وولي الأمر وكان ملكه القلعة سنة سبع وأربعين وأربعمائة".

⁴¹ ابن الأثير، نفس المصدر، ج8، ص55. حيث قال: " في هذه السنة دخلت العرب إفريقية ، وسبب ذلك أن المعز بن باديس كان خطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسي ، وقطع خطبة المستنصر العلوي صاحب مصر سنة أربعين وأربعمائة فلما فعل ذلك كتب إليه المستنصر العلوي يتهدده فأغلظ المعز في الجواب ، ثم أن المستنصر استوزر الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة ، إنما كان من أهل التبانة والفلاحة، فلم = = يخاطبه المعز كما كان يخاطب من قبله من الوزراء كان يخاطبهم بعبدته ، فخاطب اليازوري بصنيعته فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع إلى ما يحب ، فأكثر الوقعة في المعز وأغرى به المستنصر". وأرجع ابن خلدون الزحف الهلالي على المغرب الإسلامي إلى نفس السبب الذي ذكره ابن الأثير، أنظر: ابن خلدون ، كتاب العبر، ج6، ص17.

⁴² ابن الأثير ، نفس المصدر، نفس الموضوع . ذكر ابن خلدون أن هذا الزحف كان في سنة 441 هـ، نفس المصدر، ج6، ص17 ، لكن نرى الأصح ما ذكره ابن الأثير.

⁴³ نفس المصدر ، نفس الموضوع.

⁴⁴ نفس المصدر، ج8، ص56.

⁴⁵ عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب (المغرب في عهد الوحدة والسيطرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2، 2000، ص98.

⁴⁶ نفس المرجع ، نفس الموضوع .

⁴⁷ ويصف ابن الأثير وقائع معركة حيدران بقوله: " ثم قدم أمراء العرب على المعز فأكرمهم وبذل لهم شيئا كثيرا ، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان إليهم بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها

الأستاذ: طاهر سبع

مثله قط ، فحينئذ احتفل المعز وجمع عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس، فلما رأَت العرب صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم ، فقال مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار، فقالوا : أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكاذغندات والمغافر؟ قال: في أعينهم فسبي ذلك اليوم يوم العين والتحم القتال واشتدت الحرب فاتفقت صنهاجة على الهزيمة وترك المعز مع العبيد حتى ترى فعلهم ويقتل أكثرهم ، فعند ذلك يرجعون على العرب فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز فكثير القتل فيهم، قتل منهم خلق كثير وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك واستمرت الهزيمة ، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة ودخل المعز القيروان مهزوما على كثرة من معه واخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره ، وفيه يقول بعض الشعراء:

وإن ابن باديس لا فضل مالك * ولكن لعمري ما لديه رجالٌ

ثلاثون ألفا منهم غلبتهم * ثلاث آلاف إن ذا محالٌ

ولما كان يوم النحر من هذه السنة [أي سنة 442هـ] جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس وسار إلى العرب جريدة ، وسبق خبره وهجم عليهم وهم في صلاة العيد فركبت العرب خيولهم وحملت فانهزمت صنهاجة ، فقتل منهم عالم كثير ثم رجع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناته في جمع كثير فلما اشرف على بيوت العرب وهو قبلي جبل جندران انتشب القتال واشتعلت نيران الحرب ، وكانت العرب سبعة آلاف فارس فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل منهم إلى منزله وانهزمت زناته وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما لم يسمع بمثله، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان ووقعت الحرب فقتل من المنصورية ورفادة خلق كثير، فلما رأى ذلك المعز أبا حهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء". قارن ذلك : مع ما ذكره ابن خلدون حول وقائع هذه المعركة ، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص18-19 .

48 ابن الأثير، نفس المصدر، نفس الموضوع.

49 نفس المصدر، ج8، ص56-57؛ وقارن ب: ابن خلدون، نفس المصدر، ص19.

50 انظر: ابن خلدون، نفس المصدر، نفس الموضوع .

51 ابن الأثير، نفس المصدر، ج8، ص101.

52 ابن خلدون، نفس المصدر، ج6، ص18.

53 عبد الله العروي، المرجع السابق، ص94 .

⁵⁴ العروي، المرجع السابق، ص 94 .

⁵⁵ ابن الأثير ، المصدر السابق ، حيث قال : " في هذه السنة كانت حرب بين الناصر بن علناس بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة ومن زناتة ... وكان سببها أن حماد بن بلكين جد الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور من الخلف وموت باديس محاصرا قلعة بني حماد ما هو مذكور ، ولولا تلك القلعة لأخذ سريعا وإنما امتنع هو وأولاده بعده بها وهي من أمنع الحصون وكذلك ما استمر بين حماد وبين المعز بن باديس ودخول حماد في طاعته ما تقدم ذكره ، وكذلك أيضا ما كان بين القائد ابن حماد وبين المعز... وبعده ولده محسن وبعده ابن عمه بلكين بن حماد وبعده ابن عمه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد وكل منهم متحصن بالقلعة وقد جعلوها دار ملكهم ، فلما رحل المعز من القيروان وصبرة إلى المهديّة تمكنت العرب ونهبت الناس وخرت البلاد وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب ، فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم وفي نفوسهم الضغائن والحقود من باديس ومن بعده من أولادهم يرثه صغير عن كبير ، وولي تميم بن المعز بعد أبيه فاستبد كل من هو ببلد وقلعة بمكانه وتميم صابريداري ويتجدد واتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه وأنه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهديّة ، وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهديّة فلما صح ذلك عنده أرسل إلى أمراء = بني رياح فأحضرهم إليه وقال: أنتم تعلمون أن المهديّة حصن منيع أكثره في البحر لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يحمها أربعون رجلا ، وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم فقالوا له : الذي تقوله حق ونحب منك المعونة فأعطاهم المال والسلاح من الرماح والسيوف والدروع والدرق فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا على لقاء الناصر وأرسل (أي تميم) على من مع الناصر من بني هلال يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر ويخوفونهم منه إن قوي أنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة وأنهم إنما يستمر لهم المقام والاستلاء على البلاد إذا تم الخلف وضعف السلطان فأجابهم بنو هلال على الموافقة . وقالوا: اجعلوا أول حملة تحملونها علينا فنحن نهزم بالناس ونعود عليهم ، ويكون لنا ثلث الغنيمة فأجابهم إلى ذلك واستقر الأمر وأرسل المعز بن زيري الزناتي على من مع الناصر بزناتة بنحو ذلك ، فوعده أيضا أن ينهزموا" ، وذكر ابن الأثير في هذا الصدد أيضا أن الغنائم والأسلاب ردها الأمير الزيري تميم بن المعز وقال : "يقبح بي أن

الأستاذ: طاهر سبع

أخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك". ج 8 ، ص 101-102. وقارن بابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 26 .

⁵⁶ حول التوسع النورماني في الحوض الغربي للمتوسط في تلك الفترة انظر:عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة : أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ، تونس ن طرابلس ، ليبيا ، ط 1980 ، ص 57-62 .

⁵⁷ بجاية: مدينة ساحلية مشهورة ، تقع بالساحل الشرقي بالمغرب الأوسط – الجزائر- على بعد 250 كم تقريبا شرق العاصمة الجزائرية ، أنشأها أول الأمر الفنيقيون في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وعرفت باسم صالداي نظرا لموقعها البحري الحصين ن وكانت هذه المدينة نقطة لتبادل السلع والبضائع التجارية المختلفة التي اعتمد عليها الفنيقيون في تجارتهم ، وعندما جاؤ الرومان دمروا المدينة ، ثم أعادوا بناء مستعمرة على أنقاضها سميت Salday وضموها إلى مملكة موريطانيا في حدود سنة 33 ق.م وفي العصر الإسلامي الوسيط أعد بناءها الناصرين علناس واتخذها عاصمة لدولته وبقيت بجاية بعد عاصمة للدولة الحمادية إلى أن دخلها الموحدون في عهد عبد المؤمن بن علي سنة 547هـ انظر: يحي بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر (القديم والوسيط) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1999 ، ج 1 ، ص 27؛ وانظر أيضا: عبد الواحد علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1998 ، ص 145؛ إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1980 ، ص 186.

⁵⁸ ابن الأثير، نفس المصدر، ج 8 ، ص 102.

⁵⁹ حول سبب انتقال الناصرين علناس من القلعة إلى بجاية واختلاف المصادر حول ذلك انظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد ، ص 99.100 .

⁶⁰ ابن خلدون، نفس المصدر ، ج 6 ، ص 24. قال ابن خلدون : " ثم لحق بالقلعة (أي الناصر) فنزلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها ... إلى أن قال: " ولم يزل هذا دأبهم حتى هجر الناصرين علناس سكنى القلعة ، واختط بالساحل مدينة بجاية ، ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لنزله" ، ثم قال : " نزلها المنصور ابنه من بعده فرارا من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال ، وتوعر المسالك على رواحلهم ، واستقروا بها بعد وتركوا القلعة".

⁶¹ انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1 ، ص 339.

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال

كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

⁶² ابن الأثير، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 31؛ المراكشي ، المعجب ، ص 14